

الازدواجية المعيارية بين الذهن والطبيعة: مقارنة دلالية للخطأ والبينذاتية في فلسفة ديفيدسون

Normative Dualism between Mind and Nature: A Semantic Approach to Error and Intersubjectivity in Davidson's Philosophy

Le dualisme normatif entre l'esprit et la nature : Une approche sémantique de l'erreur et de l'intersubjectivité dans la philosophie de Davidson

نعيم بوزيدي¹*

تاريخ النشر: 2025/12/31

تاريخ القبول: 2025/11/05

تاريخ الإرسال: 2025/09/14

ملخص:

يتناول المقال معالجة دونالد ديفيدسون لمسألة "القطيعة المعيارية" بين الذهني والفيزيائي، مع التركيز على "الوظيفة الدلالية للخطأ" ودور "البينذاتية" في تأسيس الموضوعية. يهدف إلى توضيح كيفية نشوء مفهومي "الصدق" و"العالم" من تفاعل "الاستعدادات اللغوية" مع "المنظورات المشتركة". يعتمد البحث على "إعادة بناء مفهومي" لملاحظات ديفيدسون من خلال تحليل "الخطأ"، "المثلثية"، و"الأحادية اللانظامية". النتائج الرئيسية هي: 1. "المعيارية العقلانية" تنبثق من الممارسات اللغوية. 2. "المثلثية البينذاتية" في التواصل اللغوي تشكل أساس الموضوعية. 3. "الأولوية المعرفية للمعايير الذهنية" تفسر عدم اختزال المفاهيم الذهنية دون التخلي عن الموقف الطبيعي. يخلص المقال إلى أن الوعي يمكن أن يكون جزءًا من العالم دون الوقوع في الاختزالية.

الكلمات المفتاحية: فلسفة الذهن؛ معيارية؛ بين ذاتية؛ الطبيعية

Abstract :

This article addresses Donald Davidson's treatment of the "normative rupture" between the mental and the physical, focusing on the "semantic function of error" and the role of "intersubjectivity" in establishing objectivity. It aims to clarify how the concepts of "truth" and "the world" emerge from the interaction of "linguistic dispositions" with "shared perspectives." The study relies on a "conceptual reconstruction" of Davidson's scattered remarks by analyzing "error," "triangulation," and "anomalous monism." The key findings are: 1. "Rational normativity" arises from linguistic practices. 2. "Intersubjective triangulation" in linguistic communication forms the foundation of objectivity. 3. "Cognitive priority of mental norms" explains the non-reductiveness of mental concepts without abandoning naturalism. The article concludes that consciousness can be part of the world without falling into reductionism.

Keywords: Philosophy of Mind ; Normativity ; Intersubjectivity; naturalism.

Résumé :

* نعيم بوزيدي

¹ Naim Bouzidi, Yahya Fares University - Medea (YFUM), psda.: Algeria, bouzidi.naim@univ-medea.dz

Cet article traite de l'approche de Donald Davidson concernant la « rupture normative » entre le mental et le physique, en mettant l'accent sur la « fonction sémantique de l'erreur » et le rôle de l'« intersubjectivité » dans l'établissement de l'objectivité. L'objectif est de clarifier comment les concepts de « vérité » et « du monde » émergent de l'interaction des « dispositions linguistiques » avec les « perspectives partagées ». L'étude repose sur une « reconstruction conceptuelle » des remarques dispersées de Davidson, en analysant « l'erreur », « la triangulation » et le « monisme anomique ». Les résultats principaux sont : 1. La « normativité rationnelle » émerge des pratiques linguistiques. 2. La « triangulation intersubjective » dans la communication linguistique forme la base de l'objectivité. 3. La « priorité cognitive des normes mentales » explique la non-réductivité des concepts mentaux sans abandonner le naturalisme. L'article conclut que la conscience peut être partie du monde sans tomber dans le réductionnisme.

Mots clés : Philosophie de l'esprit ; Normativité ; Intersubjectivité

مقدمة

يتناول هذا المقال مسألة محورية في فلسفة العقل واللغة عند دونالد ديفيدسون، وهي مسألة الانفصال المعياري بين الذهني والفيزيائي بمعنى التباين في القواعد والمعايير التي تنظم الظواهر العقلية مقارنة بالظواهر الفيزيائية. فعلى الرغم من أنّ أعمال ديفيدسون قد فُسِّرت أساساً من خلال مفهومي المذهب الأحادي اللانظامي anomalous monism ويقصد به الموقف الذي يجمع بين وحدة الوجود الفيزيائي وبين غياب قوانين نفسية صارمة تضاهيه، والتأويل الجذري radical interpretation باعتباره المنهج الذي ينطلق من إمكانية فهم لغة الآخر ابتداءً من الصفر عبر ربط أقواله بمحيطه وسلوكه (Lepore & Kirk, 2013) (Kirk, 2003)، إلا أنّ جانباً آخر لم ينل ما يستحق من الاهتمام، وهو الوظيفة الدلالية للخطأ، أي المقام الإيجابي لإمكانية الخطأ في إنتاج المعنى والمعايير، والدور التكويني للبينذاتية intersubjectivity من حيث هي العلاقة التفاعلية بين الذات في إطار التواصل في تأسيس الموضوعية.

وانطلاقاً من الملاحظات المتفرقة لديفيدسون حول قابلية الاستعدادات اللغوية للخطأ، نقوم بإعادة بناء تصور نسقي يبيّن كيف تنشأ مفاهيم الصدق (truth) والخطأ (error) بوصفهما غير منفصلين عن حياتنا الذهنية وعلى وجه التحديد: كونهما جزءاً من بنية التفكير ذاته، وكيف يرتبطان في الوقت ذاته بتأسيس مفهوم العالم (concept of world).

يعتمد نهجنا على مسلكين متكاملين:

أولاً، نذهب إلى أنّ إمكان الخطأ بمعنى احتمال الزلل في القول والفعل، يُدخل عنصر العقلانية في الاستعدادات اللغوية، مما يجعلها معيارية بالمعنى الذي يميز الإدراك البشري عن مجرد السلوك الحيواني. ثانياً، نبين أنّ المثلية البينذاتية intersubjective triangulation وهي العملية التي تتشكّل عبر تفاعل ثلاثة عناصر: الذات، الآخر، والعالم الخارجي (Myers & Verheggen, 2016) عبر التواصل اللغوي، ليست مجرد شرط لاكتساب المفاهيم، بل هي

أيضاً أساس الموضوعية وأصل مفهوم العالم نفسه. وبذلك يمكن معالجة الفجوة المعيارية بين المجالين الذهني والفيزيائي (وبعبارة أخرى: السؤال حول كيفية ربط القوانين الفيزيائية بالمعايير الذهنية) من زاوية دلالية بدلاً من مقارنة أنطولوجية صرفة. وبهذا الصدد، تُدرج أطروحات ديفيدسون ضمن الإطار الأوسع للنقاش الفلسفي الدائر حول المعيارية (normativity) والموضوعية (objectivity) والطبيعانية (naturalism). ويُعاد النظر في الافتراض التقليدي الذي يمنح المفاهيم الفيزيائية الأولوية على المفاهيم الذهنية، إذ نقترح بدلاً من ذلك تأكيد أولوية القواعد المعيارية الذهنية في التطور المعرفي. ففي هذا المنظور، يُنظر إلى مفهوم العالم على أنه اكتساب معرفي لاحق، ينهض على أساس البنية الذهنية المعيارية المكتسبة أولاً، ويكتسب أهميته كمرحلة ثانوية ضمن تطور الفهم البشري للواقع.

1- إمكان التفكير: من الشروط المفهومية إلى التلازم بين الذات، الآخر، والعالم في فلسفة ديفيدسون

انشغل البحث الفلسفي، في الغالب الأعم، كما بين ذلك "كورنيل ويست" في كتابه "الفلسفة بعد التحليلية" (Rajchman & Cornell, 1985) بالمسائل الايستيمولوجية، مثل التمييز بين الاعتقاد الصادق والاعتقاد الكاذب، وتنقيح الشروط التي بموجبها يكون الاعتقاد صادقاً. غير أنّ ديفيدسون يصرّ على أنّ مثل هذه الأسئلة تفترض ضمناً مسألة أكثر أساسية، هي: «إمكان التفكير نفسه»، أي الشروط التي تجعل من الممكن أن يكون لنا اعتقادات أصلاً (Davidson, 2004, pp. 3,4). الفكرة الرئيسة في هذا السياق هي أنّ فلسفة المعرفة تواجه مشكلتين مترابطتين: الأولى، التي تعود إلى ديكرت، تتعلق بكيفية تبرير اعتقاداتنا بوجود عالم خارجي مستقل عن أذهاننا. أما الثانية، والأكثر جذرية، فتتعلق بفهم الكيفية التي اكتسبنا بها مفهوم الواقع الموضوعي. فالسؤال لا ينحصر فيما إذا كانت اعتقاداتنا صادقة، بل يتجاوز ذلك إلى ما يجعل الاعتقاد - سواء أكان صادقاً أم كاذباً - ممكناً من حيث المبدأ. إنّ الأمر يتعلق بجميع أشكال التفكير، ما دامت كل فكرة تحمل محتوى propositional content يمكن أن يكون صادقاً أو كاذباً. والتفكير في الشروط التي تمكّننا من إصدار مثل هذه الأحكام، بما في ذلك الحكم عن الخطأ، هو أمر حاسم لفهم كيف يمكن تبرير اعتقاداتنا وتكوينها للمعرفة.

عندما يثير ديفيدسون هذا السؤال، فإنه لا يسعى إلى الكشف عن الأصول السببية للفكر، فهذا المجال من اختصاص العلوم التجريبية. بل اهتمامه ينصبّ على الشروط القبلية المفهومية conceptual preconditions للفكر بما هو فكر. ومن البين أنّ مجالاً واسعاً من السلوك البشري لا يتطلب وجود تفكير. بل يمكن تصوّر كائنات تتفاعل بنجاح مع محيطها دون أن تمتلك أبداً مفهوم الفكر، ما دامت مجهزة بأنماط معقدة بما يكفي من الاستجابة والتكيف. فالحيوانات والآلات، في نهاية المطاف، قادرة على تسجيل الفوارق في محيطها والاستجابة لها بطرائق فعالة للغاية، وغالباً ما تتفوق على البشر في مجالات محددة. ومن هنا يطرح اللغز الحقيقي: لماذا يوجد الفكر أصلاً؟ (Davidson, Problems of Rationality, 2004, p. 7).

يرى ديفيدسون أنّ ما يميز الإنسان ليس مجرد امتلاكه القدرة على القيام بأفعال معينة، بل امتلاكه القدرة على التعبير عن موقفه من العالم، أي أن يصف الأشياء والوقائع من حوله وأن يصدر بشأنها أحكاماً وتعليقات. فحتى إذا

افترضنا غياب مفهوم صريح للفكر كمفهوم نظريّ، يظل من الضروري أن يقوم المتكلمون، بحكم طبيعتهم اللغوية، بتمثيل العالم والتحدث عنه. ومن اللحظة التي تظهر فيها هذه القدرة التعبيرية، يصبح من الطبيعي أن ننسبها إلى الآخرين أيضاً، تماماً كما ننسب إليهم صفات طبيعية مألوفة مثل الوزن أو الحجم (Davidson, 2001, p. 208) وعلى هذا الأساس، يفترض ديفيدسون أنّ البشر قد بلغوا، في مرحلة معينة من تاريخهم، لحظة حاسمة اكتسبوا فيها نوعاً جديداً من المعرفة: المعرفة بأفكارهم الخاصة، وفي الوقت نفسه المعرفة بأفكار الآخرين. ويمثل هذا الحدث اكتشاف مجال متميز من الخصائص الذهنية، واختراع نسق مفهومي يتيح وصفها والتعامل معها. غير أنّ ديفيدسون يرفض اختزال ظهور الفكر في شرط واحد محدد، بل يؤكد أنّ المعرفة بالعالم الخارجي والمعرفة بالذات والمعرفة بعقول الآخرين تنشأ معاً وفي آن واحد. فلا يمكن اختزال أيّ من هذه الأشكال الثلاثة إلى غيرها، ولا اشتقاقها منها؛ فامتلاك أحدها يعني بالضرورة امتلاك الثلاثة جميعاً (Davidson, 2005, p. 141). وهذا التلازم يجسده ما يسميه ديفيدسون النموذج الثلاثي triangular schema – الذات، الآخر، العالم – حيث لا يحظى أي من هذه الأقطاب بأولوية مفهومية أو زمنية على الآخر (Davidson, 2001, p. 87).

في هذا السياق، يذهب ديفيدسون إلى أنّ التساؤل عن وجود الفكر يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالتساؤل عن امتلاكنا مفهوم الصدق الموضوعي objective truth. فالفكر ليس مجرد نشاط داخلي غامض، بل هو مشروط بقدرة الكائن على إدراك الصدق والكذب بوصفهما معيارين لتقييم أحكامه. ومن ثم، يرى ديفيدسون أنّ الإيمان belief يفترض مسبقاً وجود مفهوم الاعتقاد، وهذا لا يتوافر إلا عند الكائنات التي تستعمل المفاهيم ضمن لغة. غير أنّ امتلاك مفهوم الاعتقاد يقتضي بالضرورة التمييز بين ما هو صادق وما هو كاذب؛ وعليه فإنّ كل اعتقاد ينطوي ضمناً على مفهوم الموضوعية (Davidson, 2004, p. 10). ولهذا السبب، فإنّ غالبية الكائنات الحية، التي تفتقر إلى هذه البنية المفهومية، لا يمكن أن تُنسب إليها اعتقادات بالمعنى الدقيق.

وبناءً على ذلك، فإنّ امتلاك اعتقاد يعني إدراك أن المرء قد يخطئ في حكمه على العالم، أي أن ما يعتقد قد لا يتطابق مع ما هو قائم في الواقع. صحيح أنّ الحيوانات والآلات قد تفشل أو تتعطل في تفاعلها مع البيئة، لكن هذا الفشل لا يُفهم عندها بوصفه خطأً، إذ إنّها لا تمتلك مفهوم الخطأ concept of error الذي يتيح الوعي بالفرق بين الحقيقة والزيف. ومن هنا، فإنّ إخفاقاتها ذات طابع خارجي تماماً، تُرصد من منظور الآخرين، وتتمثل في سوء تكيف يفرض تعديلاً جديداً في السلوك أو الآلية، لا في إدراك داخلي «بخطأ تمثيل» أو «زيف صورة ذهنية».

2- الانقسام المعياري: الفروق بين المعرفة الذهنية والمعرفة الفيزيائية في فلسفة ديفيدسون

يمكن التعبير عن إشكالية إمكان التفكير أيضاً من خلال صياغتها كسؤال حول «أصل تراكيبنا اللغوية الذهنية» mentalistic idioms – أي الصيغ اللغوية التي نستعملها للتعبير عن الحالات العقلية مثل الاعتقادات والرغبات والنوايا – والمعايير المميزة distinctive norms التي تضبط استعمالها. فالمسألة المطروحة هي: ما الذي يميز معرفتنا بالرغبات والمعتقدات – سواء معتقداتنا الخاصة أو تلك التي ننسبها إلى الآخرين – عن معرفتنا بأنواع أخرى من الخصائص والحالات التي نمتلكها؟

وفقاً لديفيدسون، يكمن الفرق الجوهرى في أن معرفة الحالات الذهنية ذات طابع معياري في الأساس: فهي تنطوي على روابط عقلانية بين الحالات، مثل التبرير justification، والاستنتاج inference، والاتساق coherence. في المقابل، فإن معرفة الخصائص الفيزيائية تنطوي أيضاً على معايير، لكنها معايير عامة وعلنية ومشاركة بين الجميع. يشدد ديفيدسون على أنّ المعايير التي تحكم إسناد الحالات الذهنية هي في جوهرها «فردية»، بينما المعايير التي تحكم الخصائص الفيزيائية هي مشتركة وبيندائية «intersubjective» (Davidson, 2001, p. 215). وهذا ما يثير الصعوبة المركزية: بأي معنى تختلف هذه المعايير؟ وعلى أي أساس نحدد أي نوع من المعايير هو المناسب في سياق معين؟

ويصوغ ديفيدسون اجابته لهذه المعضلة كما يلي:

«إنّ كيفية قياسنا للكميات الفيزيائية يُحسم تفاعلياً بين الذوات. أما في تفسيرنا للآخرين، فلا يمكننا، على النحو ذاته، أن نتجاوز معاييرنا النهائية للعقلانية. ليست الأولوية هي القضية هنا. فلن تكون لنا أفكار مكتملة أصلاً إن لم نكن في تواصل مع الآخرين، وبالتالي لن تكون لنا أفكار عن الطبيعة؛ فالتواصل يقتضي أن ننجح في العثور في الآخرين على شيء شبيه بأنماط تفكيرنا» (GUTTENPLAN, 1994, p. 233).

ينتج عن هذا القول مباشرة أنّ «المعايير التي نفهم بها الطبيعة تعتمد على المعايير التي نفهم بها الآخرين». غير أنّ هذا الاعتماد يُطرح بدوره تحدياً فلسفياً إضافياً: كيف يمكن الدفاع عن هذه الأطروحة دون السقوط في النزعة الذاتية «subjectivism» أو المثالية «idealism»؟ إجابة ديفيدسون هي أنّ اعتماد أحد المجالين على الآخر لا ينبغي أن يُفهم بوصفه تهديداً للموضوعية، بل باعتباره «النقطة التي ينتهي عندها التساؤل». فسواء في تفسير الحالات الذهنية للآخرين أو في تفسير الطبيعة، هناك نقطة يتوقف عندها البحث، وإن كانت في موضع مختلف من كل مجال.

إنّ قياس الخصائص الفيزيائية يثبت تفاعلياً بين الذوات، من خلال معايير مشتركة. في المقابل، لا يمكن لتفسيرنا لحالات الآخرين الذهنية أن يتجاوز حدود معاييرنا الخاصة للعقلانية (GUTTENPLAN, 1994, p. 232). وهكذا يبدو أنّ «تقييم الحالات الذهنية يفتقر إلى معايير تفاعلية أصيلة». ومع ذلك، يلاحظ ديفيدسون في مواضع أخرى أننا حتى في تفسيرنا للعالم الفيزيائي، نلجأ حتماً إلى معاييرنا الخاصة. غير أنّ الفرق يكمن في أننا، في حالة الفيزيائي، لا نبحث عن العقلانية، بينما يتضمن تفسير الذهني بالضرورة إسناد العقلانية إلى الفاعل المُفسّر (Davidson, 2001, p. 215).

3- المعايير الفيزيائية والفسولوجية والذهنية: تحديات التفريق بين القياس الموضوعي والتفسير العقلاني عند ديفيدسون

تستدعي أطروحة ديفيدسون استعارة فيتغنشتاين حول «الصخر الأساس» («bedrock») و«مجرى النهر» («riverbed») و«مفصل الباب» («hinges») في تأملاته حول اليقين (Wittgenstein, 1979) والتي تجد

عرضها بالتفصيل "بَيَّكَر غوردن" (BAKER, 2008) و "فيرهيغن كلودين" (Verheggen, 2017). غير أنَّ التفسير الذي استند عليه ديفدسون يظلّ غير مُرضٍ. فالمعضلة المركزية هنا هي: كيف يمكننا فهم الفرق بين المعايير التي تضبط تفسير الفاعلين العقلانيين وتلك التي تضبط قياس الأشياء الفيزيائية؟ ولماذا لا يمكننا – من حيث المبدأ – أن نؤسس معايير وأدوات قياس مشتركة لإسناد الحالات الذهنية، تمامًا كما نفعل مع الحالات الفيزيائية؟

إحدى الإجابات الممكنة تستند إلى «كُلِّيَّاتِيَّةِ الدِّهْنِ» «holism of the mental» وإلى «التعقيد السببي للتاريخ الفردي» والتي قدمها براير، غير هارد في كتابه : دونالد ديفيدسون "عن الصدق والمعنى والذهن" (Preyer, 2012)، حيث تشكّل هذه التعقيدات الأطر التفسيرية لكل ذاتٍ. لكن الكُلِّيَّاتِيَّةِ والتعقيد السببي يميزان أيضًا وصف الظواهر الطبيعية، ومع ذلك لم يمنعنا ذلك من تأسيس معايير مشتركة لقياس الخصائص الفيزيائية. إن الاكتفاء بالقول بأن «اهتمامنا يختلف في كل حالة» غير كافٍ، إذ يثير فورًا السؤال عن الأساس الذي يبرر هذا الاختلاف في الاهتمام. فلماذا لا نعامل الحجارة أو الحشرات كفاعلين عقلايين؟ أليس هذا الفرق نتيجة للثنائية المعيارية نفسها أكثر مما هو سبب لها؟ وإذا لم يُوضَّح هذا، فإنّ الثنائية بين المعايير الذهنية والفيزيائية تظل غامضة وتستدعي محاولات اختزالية لدمج أحد النسقين في الآخر.

ولمعالجة هذه الصعوبة، يمكننا فحص إسناد الحالات الفسيولوجية الداخلية، ومقارنة المعايير ذات الصلة بتلك التي تضبط إسناد الحالات الذهنية. فإذا كان المرء مصابًا بالحمى، قد يكون على وعي مباشر بها من منظور الشخص الأول (الأنا)، تمامًا كما هو الحال مع وعيه بحالاته الذهنية. لكن الآخرين أيضًا يستطيعون اكتشاف إصابته بالحمى دون أن يخبرهم بذلك؛ بل قد يتعرفون عليها حتى في الحالات التي لا يدركها هو نفسه. وهذا يُظهر أنّ إسناد الحالات الفسيولوجية، بوصفها حالة خاصة من الإسناد الفيزيائي، مضبوط بمعايير مشتركة وقابل للتحقق التفاعلي بين الذات.

وعليه، يبدو أننا نستطيع تمييز ثلاثة مستويات أو "مقاييس" في إسناد الخصائص والحالات:

1. «المستوى الفيزيائي»: حيث ننسب خصائص مثل الطول والوزن ولون البشرة.
 2. «المستوى الحيواني أو الفسيولوجي»: حيث ننسب حالات جسدية داخلية، مثل الجوع أو الألم.
 3. «المستوى العقلائي»: حيث ننسب المعتقدات ونُضفي المعنى على الإشارات والأقوال.
- الفكرة الموجهة وراء هذا الإطار الهرمي هي أنّ «الحالات الذهنية، وإن كانت جزءًا مخصوصًا من الحالات الفيزيائية، يمكن أن تُسند لها مرجعية موضوعية أيضًا». فالمشكلة ليست في التفاعلية من حيث القياس الدقيق للحالات الذهنية، بل في تفسير سبب تمكننا من «مشاركة محتويات أفكارنا مع الآخرين» – أي لماذا يمكن للمحتوى المفهومي أن يكون، من حيث المبدأ، مشتركًا.

4- الاستعدادات اللغوية ومعيارية الفكر: من التفاعل الاجتماعي إلى القصيدة الدلالية في نظرية ديفيدسون

قد يكون التمييز بين المعايير norms الفيزيائية والذهنية راجعًا في النهاية إلى أن الحالات الفيزيائية التي نربطها بالحالات الذهنية ليست جميعها معطاة بشكل طبيعي، بل يتم اكتساب كثير منها بالتعلّم. إنّها حالات فيزيائية تتجلّى في أفعالنا: مثل طريقة الوقوف، أو ربط شريط الحذاء، أو أنماط سلوك مشاهة. وكل مسار فردي لاكتساب مثل هذه الحالات

يضيف عليها بُعدًا معياريًا خاصًا، فيجعل القواعد نفسها مشحونة وفردية. فلا أحد "يتعلم" قامته أو درجة حرارة جسده، غير أن كل فرد يتعلم، من خلال التفاعل الاجتماعي والتدريب، كيف يمتلك ويُعبّر عن رغباته ومعتقداته. صحيح أن الحيوانات تستطيع اكتساب أنماط سلوكية معقدة نسبيًا عن طريق التعلم المتبادل. ومع ذلك، فمهما بلغت هذه الأنماط من التعقيد، فإنها لا تبرز نسبة قواعد عقلانية إليها (Davidson, 2001, p. 128). الفرق الجوهرى يكمن في أن الإنسان يكتسب أنماطًا من السلوك لا تكتسبها الحيوانات: السلوك اللغوي (بالمعنى الصارم). وهذا يشمل إنتاج العبارات الفعلية، وكذلك الاستعداد لإنتاجها—أي ما يمكن أن نسميه الاستعدادات اللغوية.

وبحسب الرؤية الجمليّة *sententialist* للمواقف القصدية *propositional attitudes*، فإن الحالات الذهنية مثل الاعتقاد والرغبة هي مواقف تجاه قضايا يكون المرء مستعدًا لتأييدها باعتبارها صادقة (أو بدرجة معينة من التصديق). وبذلك، فإن اكتساب مثل هذه الحالات يعني تعلم كيفية النطق بطريقة معينة في ظروف محددة. والشرط الضروري لوجود القواعد الذهنية يتمثل، إذن، في الاكتساب الاجتماعي لجمل منطوقة علنًا في سياقات معينة، مدعومة بتشجيع أو استهجان المجتمع اللغوي للفرد.

يذهب ديفيدسون إلى أن هناك روابط مفهومية بين السلوك القابل للملاحظة والبيئة من جهة، وبين المواقف الذهنية من جهة أخرى. فبفضل توفر معلومات غنية حول السلوك الفعلي أو المحتمل، يمكننا استنتاج مواقف الآخر، بل وطبيعة حالاتنا الذهنية نحن أنفسنا (Davidson, 2001, p. 100). وتعمل هذه الروابط كمصفاة تفسيرية تُطبق على السلوك الكلي للفرد. ونظرًا للترابط الكليّ *holism* للمواقف القصدية، فإن نسبة حالة ذهنية معينة إلى شخص ما لا بد أن تقوم على تفسير سلوك قابل للملاحظة شديد التعقيد—وهو سلوك لا يظهر إلا لدى الكائنات الناطقة. وهذا لا يعني أن الحالات الذهنية تختزل إلى النشاط اللغوي، وإنما يعني أن امتلاك اللغة شرط ضروري، وإن لم يكن كافيًا، للتفكير (Davidson, 2001, p. 100).

وكما سبق التأكيد، فإن امتلاك اعتقادٍ يستلزم في الوقت ذاته امتلاك اعتقاد بشأن صدق ذلك الاعتقاد نفسه. هذه الانعكاسية *reflexivity* الدنيا تشكّل سمة مميزة للتفكير. وموضوع هذا الاستعداد الثاني (second-order disposition) هو الذات ذاتها، بوصفها متكلمة (على الأقل إكمانيًا) في الظروف المعنية. وهذان الاستعدادان متلازمان: الأول هو الاستعداد للقول تحت شروط معينة؛ والثاني هو الاستعداد للقول عن النفس إنها تؤكد صدق ما تقوله—على سبيل المثال: "أنا أعتقد"، "أنا أفترض"، "أعتبر أن... صحيح".

إن الوعي بإمكان كذب الاستعداد الأول يساوي، إذن، امتلاك معرفة ذاتية من منظور الشخص الأول (الأنا). ولكي يُعتبر الاستعداد معياريًا، فلا بد أن يتجه إلى استعداد آخر—ابتداءً باستعدادات الآخرين، ثم استعدادات الذات—وهذا الاستعداد الآخر لا بد أن يكون بدوره استعدادًا للقول. فإسناد حالة ذهنية للآخر هو، إذن، توقّع لاستعداداته للنطق بعبارة ما. غير أن مثل هذه التوقعات قد تكون صحيحة أو خاطئة—صادقة أو كاذبة.

لكن ما الذي يمنح هذا الطابع المعياري المميز هنا، أي معنى "الواجب" ought بدلاً من مجرد التوقع (كما هو الحال عند الحيوانات)؟ الجواب أن التوقع يتعلّق لا بأي فعل كان، بل بقول جملة: أي تسلسل محدد من الأصوات المرتبة وفق النسق النحوي. ومن ثمّ، فإنّ المعيارية حاضرة منذ المستوى النحوي. ومع ذلك، فإنّ البنية النحوية وحدها غير كافية؛ فلا بد من نظام استدلالي أو منطقي، أي من شبكة منهجية من الروابط بين القضايا (كما هو الحال عندما يتعلم الطفل استخدام "لأن"، "إذن"، "لذلك"). وهذا النظام الاستدلالي يُكتسب بدوره من خلال التدريب اللغوي.

وعليه، فإنّ الاستعداد الموجّه نحو استعداد آخر هو في الوقت نفسه توقّع لنمط استدلالي من الحجج والنتائج، مرتبط بالعبارة المتوقعة. وعندما نسب موقفاً قصدياً إلى شخص ما، فإننا لا نتنبأ بقول جملة مفردة وحسب، بل نتوقع نسقاً منظماً من الجمل المترابطة بحيث يمكن استنتاج بعضها من البعض الآخر. وفعل الإسناد، إذن، يلزمننا بنظام من الاستعدادات المتشابهة. وإنّ كُلياًنيّة الذهني holism of the mental تعني أنّ إسناد اعتقاد أو موقف قصدي يقتضي بالضرورة إسناد شبكة من مواقف عقلانية مرتبطة به (Davidson, 2004, pp. 11,15).

يبقى السؤال المحوري: من أين تستمد الاستعدادات الأولية قيمتها الدلالية – أي خاصية كونها موجّهة إلى استعداد آخر أو مجموعة استعدادات؟ إنّ القول بأنّ استعداداً ما يتعلّق بشيء ما معناه أن يكون له محتوى تصوري conceptual content. وبالنظر إلى النسق الاستدلالي الذي سبق وصفه، فهذا يفيد أنّ الاستعداد ينتظم وفقاً لذلك النسق، ويستحضره في اعتباره، ويهتدي به في توجيه استعماله. وهذا بالضبط ما تفتقر إليه استعدادات الحيوانات التي لا تفعل سوى محاكاة الكلام: فهي تفتقد القصدية الدلالية semantic intentionality، أي القدرة على أن تشير العبارات إلى عبارات أخرى وأن تنتظم في شبكة من المعاني.

إنّ الكلام بالمعنى الدقيق لا يتحقق إلا عندما يمتلك المتكلم استعداداً لتوسيع خطابه في اتجاه استدلالي معيّن، وذلك عبر التفسير أو التبرير أو غيرهما من أنماط التوسيع. وهنا يظهر البعد المعياري: ف«الواجب» في هذا السياق لا يُفهم أخلاقياً، بل دلالياً ومنطقياً؛ إذ يتعلّق بالإمكانات المتاحة لمواصلة الخطاب وفق نسق محدد، أي الالتزام بالمسارات الاستدلالية التي يفتحها القول ذاته.

قد يبدو هذا التصور في أول وهلة دائرياً: إذ كيف نشقّ القواعد الذهنية من الاستعدادات اللغوية، إذا كانت هذه الاستعدادات نفسها تفترض مسبقاً قصدية دلالية؟ غير أنّ هذا الاعتراض يكشف في الواقع عن لبّ الجواب الذي قدسوني: فليست هناك مرحلة أولى لتعلّم اللغة تسبق مرحلة التفكير، ولا العكس؛ بل إنّنا نتعلّم الكلام والتفكير في آن واحد، ضمن ممارسة واحدة متكاملة. فمن خلال التمييز بين معيارية الحالات الذهنية ومعيارية الأوصاف الفيزيائية، يتضح أنّنا نتدرّب منذ البدء على استعمال العبارات ومعانيها، وعلى كيفية إدماجها في سياقات التعبير عن الحالات الذهنية.

وعليه، يمكن القول إنّ معيارية الذهني مؤسسة على معيارية النشاط اللغوي. غير أنّ ديفيدسون نفسه رأى أنّ هذا الحل – القائم على الممارسات التواصلية – يظل غير كافٍ في النهاية. إذ حيثما وُجدت لغة، وُجد التفكير بالفعل؛ لكن ما هو مطلوب فلسفياً ليس مجرد إيضاح شروط إسناد التفكير، بل تفسير نشأته ذاتها. كما شدّد على أنّ القواعد التي تضبط المجال الذهني، وإن كانت مشروطة بالاستعدادات المكتسبة، فإنّها لا تختزل إليها اختزالاً تاماً؛ فالحصول على

الاستعدادات شرط ضروري، لكنه غير كافٍ لقيام التفكير. ومع ذلك، يبقى وجود اللغة، من بين جميع الشروط التي تتيح إسناد الحالات الذهنية، هو الشرط الأكثر حسماً (Segal, G., Kotatko, P., & Pagin, P., 2001, p. 13)

5- التمييز بين القواعد اللغوية ومعيارية الاستعدادات: دور القابلية للخطأ في التفاعل المعرفي والتبادل اللغوي وفقاً لنظرية ديفيدسون

في معالجته للتمييز بين أنماط القواعد المختلفة، يدعونا ديفيدسون إلى النظر في الطابع المعياري normative character لاستعداداتنا اللغوية. فهذه الاستعدادات، بخلاف السلوكيات الغريزية أو الميكانيكية لدى الحيوانات، لا تختزل إلى مجرد نجاح أو فشل في الاستجابة؛ بل تتضمن وعياً ضمناً بإمكان الخطأ fallibility. فالجسد، على سبيل المثال، يمتلك طولاً أو درجة حرارة على نحو موضوعي، لكن المتكلم يمكن أن يخطئ في تحديد طول جسده أو حرارة بدنه. وهذه الإمكانية في الوقوع في الخطأ هي التي تدخل عنصر العقلانية في الاستعدادات اللغوية: إذ إن تعلم اللغة يعني في الوقت ذاته تعلم أن أحكامنا قد تكون موضع تصحيح من قبل الآخرين، وأنها قد تتكشف خاطئة عند المراجعة. وبهذا، تصبح المعيارية جزءاً لا ينفصل عن البنية التكوينية لاستعمالنا اللغوي. (Joseph, 2004) (Hahn, 1999) (Lepore & Kirk, 2006)

على ضوء ما أوضحه فيتغنشتاين، يبيّن ديفيدسون أن الاستعدادات بوصفها مجرد إمكانات للفعل لا تحمل طابعاً معيارياً في ذاتها. فالمعيارية لا تظهر إلا عند قيام التمييز بين القيام بفعلٍ ما وفق قاعدة وبين الاعتقاد بأنّ المرء يتبع قاعدة (Davidson, 2001, p. 129). وبعبارة أخرى، لا يُقال إنّ الشخص يخطئ لمجرد امتلاكه استعداداً، بل يظهر الخطأ فقط في إطار ممارسة القواعد ومحاولة اتباعها (Davidson, 2005, p. 14). غير أن إدراك إمكان الخطأ يفترض مسبقاً مفهوم الصدق: إذ إنّ الحكم judgment، وامتلاك المفاهيم concept-possession، وتطبيق مفهوم الصدق هي أمور مترابطة داخلياً عند ديفيدسون. فتصنيف شيء ما تحت مفهوم معين يعني الاعتراف ضمناً بأنّ هذا التصنيف قد يكون خاطئاً، ومن ثمّ أن الحكم ذاته قد يكون كاذباً. ولهذا، فإنّ امتلاك المفاهيم يستلزم في الوقت نفسه امتلاك مفهوم الحكم والصدق (Davidson, 2005, p. 139).

إنّ الوعي بقابليتنا للخطأ يكشف عن الطابع البيندائيّ لعلاقتنا بالعالم. فحين نضع في اعتبارنا ما قد يقوله الآخر في موقف معين، أو نتخيل الكيفية التي قد يصف بها العالم لو كان في موضعنا، فإننا نُقرّ ضمناً بإمكان اختلاف حكمنا عن حكمه، وبالتالي بإمكان خطئنا. وهنا تبرز أهمية نظرية التثليث triangulation عند ديفيدسون: فبينما تستطيع الحيوانات أن تنسق أفعالها سلوكياً—كما في استجابات المفترسات لإشارات بعضها أثناء الصيد—إلا أنّ هذا النمط من التنسيق يظلّ خالياً من المعيارية العقلانية، ومن ثمّ من الموضوعية (Davidson, 2004, p. 143). إنّ ما يميّز الممارسة الإنسانية هو التواصل اللغوي: تبادل الكلمات الذي يتيح تقييم منظور الذات في ضوء منظور الآخر، وجعل الحكم عرضة للفحص والتصويب.

غير أنّ التواصل اللغوي لا يختزل إلى مجرد محاكاة صوتية. فمبادلة الكلمات تعني في جوهرها الانخراط في تبادل سياقات استدلالية، أي إدراج العبارات ضمن شبكة من الأسباب واللوازم والامتدادات الممكنة. إنّ تبني منظور الآخر لا يتمثل في توقّع الأصوات التي قد ينطق بها، بل في استيعاب الطريقة التي يربط بها الكلمات برؤية معينة للعالم. وهنا يكتسب مفهوم الخطأ أهميته: فالإقرار بأن استجابة الآخر قد تكون أوفق من استجابتنا هو في ذاته إقرار بإمكان خطئنا. ومن ثمّ، فإنّ الخطأ ليس عَرَضًا ثانويًا للغة، بل هو شرط إمكان الموضوعية ذاتها.

وباختصار، وحده التواصل اللغوي هو الذي يحوّل التثليث السببي إلى تثليث معرفي. فمن خلال إمكان تبادل المنظورات—تمثيل الذات في موقع الآخر وتمثيل الآخر في موقع الذات—يتأسس البعد المعياري للصدق والكذب. فالقدرة على الموضوعية لا تنشأ من مجرد التنسيق السلوكي، بل من التداول الخطابي للأسباب والأحكام وما ينطوي عليه من إمكان الخطأ (Davidson, 2001, p. 13).

6- البينذاتية ومفهوم العالم

حتى هذه المرحلة، تقودنا أطروحة ديفيدسون إلى فكرة أن حالاتنا الذهنية هي، في جوهرها، استعداد لغوي يفترض مسبقًا مفهومي الصدق والخطأ. لكن يطرح السؤال: من أين تنشأ هذه المفاهيم ذاتها؟ هنا يعترف ديفيدسون بحجّة معرفي لا يستطيع تجاوزه، إذ لا يرى وسيلة لتقديم إجابة حاسمة (Davidson, 2001, p. 105). ومع ذلك، يمكن محاولة دفع التحليل أبعد باستكشاف اللوازم المفاهيمية الكامنة في أطروحاته.

أولاً، عند نسبة حالة ذهنية للآخر، لا يقتصر الأمر على إصدار تقرير من منظورنا الذاتي، بل نفترض أنّ هذا التقرير يمكن لأي ذات عاقلة في موقعنا أن تؤيده من حيث المبدأ. فمثل هذه النسبة، شأنها شأن وصف العالم، تدّعي الصدق والموضوعية. وبعبارة أخرى، فإن نسبنا نفترض قولاً ذا طابع كلي وبينذاتي؛ أي أنّ الاستعداد اللغوي يكتسب قوة معيارية بحيث يتحول إلى التزام ملزم لجميع المشاركين العقلانيين، سواء كانوا حاضرين أو غائبين. وبهذه الطريقة، تنشأ الكلية universality والموضوعية عندما يتحوّل موقف "التكلم في موضع الآخر" mimetic إلى موقف "التكلم في موضع الجميع"، ما يشمل جميع المشاركين العقلانيين الممكنين.

ثانيًا، المسألة لا تتعلق بمجرد صدق قول حول حالة خاصة، بل بما سيكون جميع العقلاء مستعدين لبيانه لو وُضعوا في ظروف متماثلة ذات صلة. وهذا يضيف إلى مبدأ الاتساق coherence مبدأ المطابقة correspondence: فالصدق لا يختزل إلى مجرد اتفاق اجتماعي، بل يعكس كيفية ترتيب الأشياء في الواقع. شروط الصدق تحدّد ليس بحالة فردية واحدة، بل بمجموعة جميع الحالات النظرية الممكنة، مقومة من منظور تعددية المؤولين. ومن ثمّ، يمتد صدق العبارة ليشمل جميع الحالات المماثلة، سواء لوحظت أم لم تُلاحظ. وهكذا تؤسس البينذاتية الموضوعية، "ليس لأن البشر اتفقوا بالضرورة على ما هو صادق، بل لأن البينذاتية تتوقف على التفاعل مع العالم" (Davidson, 2001, p. 91).

وقد أبرز "آلان جيبارد" Gibbard, Allan الترابط بين القواعد والموضوعية والحالات الغائبة. فهو يوضح أنّ إحدى الوظائف المركزية للغة تكمن في تمكين التأمل المشترك في ظروف غير حاضرة. فبواسطة اللغة، لا يقتصر البشر على

تبادل المعلومات عن الوضع الراهن، بل يشمل تبادل المعرفة بالماضي والمستقبل والاحتمالات الافتراضية. وهكذا يصبح بإمكانهم تقييم حالات غائبة، ومن ثم تنسيق توقعاتهم بشأن الفعل والشعور. وأولئك القادرون على صياغة استجابات جماعية تجاه ظروف غائبة—تحديد ما ينبغي فعله أو الشعور به—يهيئون أنفسهم لمواجهة بفعاليتها.

وتُعدّ هذه الممارسات التقويمية، القائمة على التنسيق بين الأفراد، جوهر الحياة الاجتماعية المعقدة بل وجوهر الحياة الإنسانية نفسها. ونظرًا لأن معظم خطابنا يشارك في إنتاج استجابات مشتركة تجاه ظروف غير حاضرة، تؤدي اللغة وظيفة تنظيمية بيولوجية لتنسيق البشر. ويسمى "آلان جيبارد" الأثر الناتج عن هذه التقييمات المشتركة على المواقف والأفعال الفعلية بـ"الحكومة المعيارية" normative governance، والتي تفترض تبني قواعد سلوك واضحة، وليس مجرد استعدادات داخلية كما هو الحال لدى الحيوانات (Gibbard, 1990, p. 72)

أمّا إنْ كانَ الإشارةُ إلى موضوعات غائبة أو غير ملحوظة من نفس النوع الذي يُلاحظُ مباشرة—وما أُطلقَ عليه كواين Quine مصطلح "المرجعية المشتركة" shared reference—فهو ما يُؤسس المجال المعرفي للموضوعات المتاحة بشكلٍ عُموميٍّ. ويصف ديفيدسون هذا التحول المعرفي باعتباره انتقالًا من مجرد الاستجابة الاستعدادية للمثيرات القريبة إلى التفكير الحقيقي في موضوعات بعيدة، حيث يمكن تطبيق المفاهيم أو سوء تطبيقها (Davidson, 2005, p. 14). ويربط ديفيدسون هذه النقلة بظهور آلية التسوير quantification في النمو اللغوي للطفل، إذ إنَّ التَّسْوِيرَ يُيسِّرُ التَّعَمُّيمَ وَتَوْظِيفَ المفاهيم الكُلِّيَّةِ. ويرى أنه من خلال آلية التسوير فقط تنشأ الأنطولوجيا على وجهها الصحيح (Davidson, 2001, p. 133).

وعلى هذا الأساس، فإن الاستعمال المعياري للمفاهيم الكلية—الذي لا غنى عنه للتواصل الأصيل—يعكس الكلية البيندائية لمفهومي "الكل" و"في ظروف متماثلة"، واللذين يجدان أصدق تعبير لهما في مفهوم العالم. فالعالم هو ما يحدث دائمًا وفي كل مكان، للجميع، مهما بدت حدوده غامضة في عملية الاكتساب. فتعلم كلمة "عالم" يعني اكتساب القدرة على إدراك ما يتجاوز المعطى المباشر والانفتاح على أفق التجربة الممكنة. وبعبارة أخرى، إن اكتساب مفهوم العالم يعني القدرة على تطبيق مفهوم الصدق على أحداث وأحوال لا تُعطى مباشرة.

ومثلما هو الحال في مفهوم الصدق، فإن مفهوم العالم أوليٌّ primitive وبديهي. إنه ليس شيئًا يُبتكر أو يُنقل في لحظة معينة، بل الشرط الذي نجد أنفسنا فيه سلفًا. وبما أن الصدق مركزي للتفكير، فإن علاقتنا بالعالم مركزية هي الأخرى ولا يمكن إلغاؤها. فاكْتِسَابُ اللغة ممكن فقط لأن الطفل موجه مسبقًا بمفهوم الصدق في توجهه الأساسي نحو الواقع. وبدون هذا، تظل الأسماء والأوصاف والجمال غير مفهومة. وينطبق الأمر ذاته على مفهوم العالم: فكما يوسِّط الصدق العلاقة بيننا وبين معاني الكلمات، يوسِّط العالم العلاقة بيننا وبين الطابع الموضوعي للأحداث وحالات الأشياء—بالضبط لأننا كلنا تقع داخل العالم.

ومثلما هو الحال إزاء مفهوم الصدق، فإن مفهوم العالم يُعدّ أوليًا وبديهيًا، أي أنه ليس نتيجة اختراع أو اكتساب لحظي، بل شرط مفاهيمي مسبق يمكننا من توجيه إدراكنا للعالم وتجربة الأحداث بطريقة موضوعية. وبما أنَّ الصدق يشكل

الأساس الجوهري للتفكير، فإن علاقتنا بالعالم أيضاً مركزية ولا يمكن تجاوزها أو إلغاؤها. فإمكانية اكتساب اللغة ترتبط تكويناً بوجود توجهٍ أوليٍّ نحو الصدق، يمكن الطفل من فهم الواقع وإدراكه، وإلا لتبقى الكلمات والأسماء والأوصاف والجمل غير مفهومة.

وعليه فإن هذا المبدأ ذاته ينطبق على مفهوم العالم: فكما يتوسط الصدق العلاقة بيننا وبين معاني الكلمات، يتوسط مفهوم العالم العلاقة بيننا وبين الطابع الموضوعي للأحداث وحالات الأشياء، لأنها جميعاً تقع ضمن نسق متماسك واحد يُسمى العالم، وهو ما يجعل فهمنا للظواهر ليس فردياً أو سطحيّاً، بل مشتركاً وبينذاتياً، أي قابلاً للمقارنة والتقييم عبر منظور جميع العقلاء الممكنين.

ومن ثم يظهر كل شيء أو كل حالة أشياء كجزء من كلٍ تصوري أوسع. وبهذا المعنى، فإن العالم، مثل الصدق، يشكل دائماً نقطة انطلاق في اتصالنا بالواقع. وهذان المفهومان ليسا مجرد متقاربين، بل هما وجهان لبنية واحدة. فالعالم ليس مجرد محمول أصلي مواز للصدق، بل هو طريقة لتجسيد مفهوم الصدق نفسه. ويرى ديفيدسون أن هذه المحايثة تجد اكتمالها في فكرته عن الثلاثية: فالعالم يؤدي وظيفة العنصر الثالث المفقود، مكتملاً العلاقة التي يشكّلها سلفاً المتكلم والمؤول في تأملاته حول الصدق والمعرفة والمعنى.

7- الأولوية المعرفية للذهني على الفيزيائي: نحو حل دلالي للفجوة المعيارية

يقترح ديفيدسون حلاً للفجوة المعيارية بين الذهني والفيزيائي، وهو حل ذو طبيعة دلالية semantic. فالمسألة لا تُعالج على مستوى الميتافيزيقا المحضة، بل على مستوى المفاهيم التي تحكم كيفية نسب المعايير إلى أنماط مختلفة من الظواهر. وفقاً لهذا الطرح، فإن «مفهوم العالم the concept of world»، من حيث علاقته بالمعايير الذهنية، لا يؤدي أي دور تأسيسي. وبعبارة أخرى، لا يُستدعى هذا المفهوم ولا يُفترض ضمناً في تكوين تمثيلاتنا للحياة الذهنية الداخلية.

فالحالات الذهنية mental states، بقدر ما يمكن القول إنها «تنتمي» إلى العالم، فإنها لا تكون كذلك إلا من حيث تحديد هويتها identification مع حالات فيزيائية. فإذا كان العالم، على غرار مفهوم الصدق، ينبغي فهمه لا كاسم مفرد يشير إلى كيان كلي متعالٍ، بل بوصفه محمولاً أولياً primitive predicate يصف كل تجربة خارجية، فإن هذا المحمول لا ينطبق على الحالات الذهنية. ومن ثم، فإن مفهوم الصدق نفسه ينطبق على هذه الحالات الذهنية بطريقة مختلفة ومتميزة.

والتفسير المنطقي لهذه الخاصية - أي أن مفهوم العالم غير مُضمن أصالةً في تمثيلاتنا الذهنية - هو أن تمثيلاتنا للحالات الذهنية تتكوّن أولاً قبل التأسيس النهائي لتمثيلاتنا للعالم الخارجي الموضوعي. بعبارة أخرى، يُعدّ مفهوم العالم مكتسباً معرفياً لاحقاً، لا شرطاً أساسياً لتكوّن ذهن. وهذه الخصوصية تميز أطروحات ديفيدسون عن الموقف الديكارتي حول فطرية الامتداد innateness of extension، وعن الصورية القبلية a priori form للحس المكاني عند كانط، التي تجعل الفضاء شرطاً معرفياً أولياً وضرورياً لكل إدراك.

ومن هنا يكتسب أطروحة ديفيدسون القائلة إن التواصل البيندائية هما مصدر الموضوعية objectivity معنى إضافيًا. إذ إن «مفهوم الموضوعية، ومعه مفهوم العالم، يفترض تعددية في المنظورات ووجهات النظر التي يتعين علينا أن نتعلم نسبها». فالعالم إذن ليس سابقًا على هذه التعددية، بل «فائق عليها» supervenient upon it، أي قائم على الحالات الذهنية التي ننسبها إلى الآخرين.

فالطفل لا يتعلم التمييز بين «رأيه في العالم» و«العالم ذاته» إلا عندما يعترف بوجود أشخاص آخرين ذوي أفكار وآراء مختلفة عن آرائه. وإذا كان بناء مفهوم العالم ينطوي، ضمن أمور أخرى، على تمثيل مناطق غير القابلة للملاحظة، فإن هذا البناء يبدأ بتمثيل «العالم الذهني غير المرئي للآخرين»، أي أفكارهم غير المباشرة وإمكاناتهم القولية. وكما يلاحظ ديفيدسون، فإن هذا هو الاعتراف بـ «جماعة من الأشخاص الأحرار» «يصبح الطفل أحد أعضائها (Davidson, 2001, p. 91).

لكن في المراحل الأولى، يظل محتوى أفكار الطفل – وأفكار الآخرين التي ينسبها إليهم – محددًا بالتفاعل المباشر مع البيئة والأشياء المحيطة. وفي هذه المرحلة لا وجود بعد لمفهوم العالم الموضوعي، أي لا وجود لأنطولوجيا بالمعنى القريب من معاييرنا الراهنة.

وعلى الرغم من أن هذا التوجه يبدو متعارضًا ظاهريًا مع الصياغة الشائعة – بل ومع بعض تصريحات ديفيدسون نفسه – التي ترى أن «المفاهيم الذهنية تترايط ترابطًا فائقًا supervene على المفاهيم الفيزيائية» (Davidson, 2005, p. 204)، فإن هذا التعارض ينحل إذا ميزنا بين المستويين: المستوى الأنطولوجي النظري، الذي يفترض فيه موقع الحالات الفيزيائية والذهنية، والمستوى المعرفي-النمائي cognitive-developmental، حيث يتضح أن «المفاهيم الذهنية تسبق مفاهيم الفيزيائي ومفهوم العالم ذاته».

وينتج عن هذا الانقلاب في الأولوية بين المعايير الذهنية والمعايير الفيزيائية عدة نتائج:

أ. **إيضاح الازدواج المعيارية (Normative Dualism):** يترتب على هذا الموقف أن المفاهيم الذهنية غير قابلة للاختزال إلى المفاهيم الفيزيائية. فالمفاهيم الفيزيائية تُفهم عادةً باعتبارها ذات منزلة أعلى أو أشمل، لكن هذا الترتيب ينقلب: إذ تصبح المعايير الذهنية مستقلة في بنيتها المعيارية ومنظومتها الاستدلالية، بحيث لا يمكن استنفادها أو تفسيرها بالكامل في إطار القوانين الفيزيائية.

وبذلك، يُرفض كل مسعى لاختزال الذهني إلى الفيزيائي، مع الحفاظ على استقلالية الحقل المعيارية الذهني.

ب. **تفسير عدم انطباق القوانين الصارمة على الحالات الذهنية:** القوانين الفيزيائية تنطبق بدقة على الظواهر الداخلة ضمن إطار العالم الموضوعي، في حين أن الحالات الذهنية تنشأ في الأصل خارج هذا الإطار؛ أي قبل أن يتأسس مفهوم موضوعية العالم ذاته. من هنا، تبدو الذهنية عصية على الاحتواء الكامل في القوانين الفيزيائية الصارمة، وتتميز بمرونة معيارية تجعلها غير قابلة للتوقع المسبق عبر الصياغات السببية الطبيعية وحدها. هذا ما يفسر الطابع المعيارية الخاص للحالات الذهنية في مقابل الصرامة الصورية للقوانين الفيزيائية.

ج. إبراز الطابع الفردي الجذري للمعايير الذهنية: في المراحل التكوينية الأولى، لا يتوفر معيار كوني أو مقياس موضوعي مشترك يُحتكم إليه لتحديد الحالات الذهنية. فالمعايير الذهنية تُكتسب بصورة أولية عبر تجربة فردية ذاتية نسبية، تتشكل من خلال تأويل الآخر وفهم الذات، قبل اكتمال تصور العالم الموضوعي. وعليه، فإن الذهني يتجذر أولاً كتجربة فردية - خصوصية، ثم يتوسع تدريجياً ليغدو بيندياً، وصولاً إلى أفق معياري مشترك أكثر موضوعية.

د. توطين الوعي ضمن العالم الطبيعي دون الوقوع في الاختزالية: يمكن فهم الوعي consciousness والحالات الذهنية بوصفها جزءاً من العالم الطبيعي، مع تجنب اختزالها إلى محض تفاعلات فيزيائية. فالوعي يظل محتفظاً بطابعه المعياري الذهني، وفي الوقت ذاته متسقاً مع التفسير الطبيعي العام. بذلك يتحقق توازن دقيق بين رفض الاختزالية من جهة، والالتزام بالطبيعية Naturalism من جهة أخرى، ما يسمح بتوطين الذهن والوعي في العالم دون التضحية بفرادتهما المعيارية.

الخاتمة

تشير التحليلات المبسطة هنا إلى أنّ القطيعة المعيارية بين المجال الذهني والمجال الفيزيائي لا ينبغي معالجتها من منظور أنطولوجي صرف، أي عبر قوانين صارمة أو تفسيرات اختزالية. بل ينبغي معالجتها من منظور دلالي، يقوم على الاعتراف بالدور التأسيسي الذي تضطلع به مفاهيم الصدق والخطأ والبينداتية في حياتنا الذهنية. فقد أظهر ديفيدسون، من خلال دراسة إمكان الخطأ، أن العقلانية والمعيارية لا تنبثق من السلوك المحض فحسب، بل تنبثق من إمكانية السقوط في الوهم نفسه، وأنّ التواصل اللغوي هو ما يحوّل الاستعدادات السلوكية الأولية إلى ممارسات معرفية حقيقية وذات طابع مفهومي أصيل.

وإذا أبرزنا أن مفهوم العالم يُعدّ «تشكلاً معرفياً متأخراً»، ناتجاً عن تعددية المنظورات التي يتيحها التفاعل البيندي، فإننا نرسم إطاراً يوفّق بين لا-اختزالية الذهني والالتزام بالطبيعية. فإعطاء الأولوية للمعايير الذهنية في التطور المعرفي يفسّر، في الوقت نفسه، غياب القوانين الصارمة في علم النفس والطابع الفردي الجوهرى لأوّل إسناداتنا الذهنية. وفي المقابل، يتيح التأسيس البيندي للموضوعية ظهور عالم مشترك يمكن أن يتفق عليه الجميع.

وبناءً على ذلك، تقدّم فلسفة ديفيدسون مقارنة للذهن لا تذيب خصائصه في قوانين فيزيائية بحتة، ولا تعزله عن النظام الطبيعي. ومن خلال تأسيس الموضوعية على أساس البينداتية، يوضّح ديفيدسون كيف أن الخطأ والتواصل والصدق تتضافر جميعها لتشكّل جسراً معرفياً يربط بين الذهن والعالم.

Bibliographie

- BAKER, G. (2008). *Wittgenstein's method: neglected aspects*. John Wiley & Sons.
- Davidson, D. (2001). *Subjective, Intersubjective, Objective*. Oxford: Clarendon Press.
- Davidson, D. (2004). *Problems of Rationality*. Oxford: Clarendon Press.
- Davidson, D. (2005). *Truth, History, and Language*. Oxford: Oxford University Press.
- GIBBARD, A. (1990). *Choices, Apt Feelings: A Theory of Normative Judgment*. Cambridge: Harvard University Press.
- GUTTENPLAN, S. (1994). *A Companion to the Philosophy of Mind*. Oxford: Blackwell.
- Hahn, L. (1999). *The Philosophy of Donald Davidson, Library of Living Philosophers*. Chicago: Open Court.
- Joseph, M. (2004). *Donald Davidson*. Montreal: McGill-Queen's University Press.
- Kirk, L. (2003). *Donald Davidson*. New York: Cambridge University Press.
- Lepore, E., & Kirk, L. (2013). *A Companion to Donald Davidson*. Oxford: Wiley-Blackwell.
- Lepore, E., & Kirk, L. (2006). *Donald Davidson: Meaning, Truth, Language and Reality*. Oxford: Clarendon Press.
- Myers, R., & Verheggen, C. (2016). *Donald Davidson's Triangulation Argument: A Philosophical Inquiry*. Routledge: New York.
- Preyer, G. (2012). *Donald Davidson on Truth, Meaning, and the Mental*. Oxford: Oxford University Press.
- Rajchman, J., & Cornell, W. (1985). *Post-Analytic Philosophy*. Columbia: New York.
- Segal, G., Kotatko, P., & Pagin, P. (2001). *Interpreting Davidson*. Centre for the Study of language and Information Publications.
- Verheggen, C. (2017). *Wittgenstein and Davidson on Language, Thought, and Action*. Cambridge: Cambridge University Press.
- Wittgenstein, L. (1979). *On Certainty*. (P. Denis, & G. Anscombe, Trans.) Oxford: Basil Blackwell.